مجلة جامعة الملكة أروى العلمية المحكمة

QUEEN ARWA UNIVERSITY JOURNAL

العدول النصي في سورة البقرة

أ.نسيم الكحلاني

كلية اللغات ، جامعة صنعاء

2019

ISSN: 2226-5759 *ISSN Online: 2959-3050* *DOI:10.58963/qausrj.v1i22.142*

Website: qau.edu.ye

العــدول النصي في سورة البقــرة

أ/ نسيم الكحــلاني
كلية اللغات- جامعة صنعاء

الملخص:

تناول هذا البحث أسلوب من أساليب التعبير القرآني، هو (العدول النصي)، وتطبيقه على سورة البقرة، التي تعددت موضوعاتها وتنوعت ألفاظها، إذ إننا نرى الأسلوب القرآني يذكر طرفًا من الشيء ثم يتركه، ثم يعود إلى إتمامه، بطريقة لا تسأم النفوس هديه، مراعيًا في تسلسل نصوصه أن يقارب بين أجزائها، كما أنه يختار لفظ ما فيعدل عنه في موضع آخر ضمن سياق نص موضوع واحد، فهذه التحولات في النص القرآني تفاجئ المتلقي لخروجها عن المتوقع من اطِّراد على لفظ أو موضوع واحد. ومن ثم البحث في الروابط والعلاقات الكامنة بين الموضوعين، من خلال المنهج التحليلي النصي، عبر المعيارين المتصلين بالترابط النصي (السبك والحبك).

كما أنَّ تقطيع النص الكلي إلى نصوص جزئية بناء على موضوعاتها (نص معدول عنه)، (نص معدول إليه) من خلال هذا المصطلح تُعين على الإحاطة بالدلالات الكلية للنص، والتحكم في أجزاء النص الكبرى عن طريق تقطيعه وتفصيله بطريقة تشريحية تجزيئية.

وقد أغفل الدارسون بحث العلاقات والروابط بين أطراف ظاهرة العدول في النص، إذ اقتصر البحث العدولي على ظاهر التركيب في المفردات اللغوية، فظل في نطاق اللفظة المفردة.

ويبقى الهدف الأسمى لهذه الدراسة هو الإبانة عن وجه من وجوه إعجاز القرآن من خلال الكشف عن الروابط التي تسهم في عملية التماسك النصي في الأسلوب العدولي القرآني.

وقد قسمتُ بحثي هذا بعد المقدمة على مبحثين:

المبحث الأول: العدول النصي الداخلي، ويعنى به: حركة انتقال من جزء إلى جزء داخل الموضوع الواحد في سياق معين. يتجاوز فيه هذا الجزء اللفظة والجملة إلى النص.

المبحث الثاني: العدول النصي الخارجي، ويعنى به:

هو الانتقال من موضوع إلى آخر لا يبدو أنه ذو صلة بالموضوع السابق، فيبدو هذا الانتقال مفاجئًا من حديث عن العقيدة إلى الحديث عن شعيرة من الشعائر، إلى حكم من أحكام المعاملات إلى توجيه اجتماعي أو اقتصادي...إلخ.

أسأل الله الكريم في عملي هذا التوفيق والسداد في القول والعمل، إنه نعم المولى ونعم النصير.

Abstract:

This research aims to study a style of language، which is (textual recantation)، and its application to Surat Al-Baqarah، whose subjects and words are numerous and varied. We can see the Qur›anic style mentioning a side of the object and then it leaves it، and then returns to complete it، in a non-boring way، taking into consideration that its parts are approximate while its texts are sequential. Likewise، it also chooses a word then modifies it elsewhere in the context of the text of a single subject. These shifts in the Qur›anic text surprise the recipient as they depart from the predicted steadiness on one word or one subject. Then it researches، using the textual analytical approach، the possible links and relationships between the two topics examined through the two criteria related to textual interconnection، i.e.، molding and knitting (sabk and habk).

Moreover، the disaggregation of the whole text into partial texts based on their subjects (a relinquished text) and (an accredited text) through this term helps to be informed of the overall implications of

the text، and to control the larger parts of it by cutting and fitting it in an anatomical and fractional manner.

Scholars have ignored to discuss the relations and links between the parties of the recantation phenomenon in the text، as the recantation search was limited to the apparent composition in the vocabulary thus remained within the scope of the single word.

The ultimate goal of this study is to demonstrate one type of the Qur›an›s miracles by revealing the links that contribute to the process of textual coherence in the Qur›anic recantation technique.

This research was divided، after the introduction، into two topics؛

First Topic؛ internal text recantation، which means a part-to-part movement within a single topic in a particular context، where recantation goes beyond the level of word and sentence to the level of the entire text.

Second Topic؛ external text recantation، which means moving from one subject to another one that seems to be irrelevant to the previous one. This seems to be a sudden transition from a talk of creed، to a talk of a specific ritual، then to a judgement of a transactions provision، and then to a social or economic guidance، etc.

In this work، I ask Allah success، rectitude، and guidance to paths of truth and reason، and I ask him safety from wrong، in saying and doing. He is the best Lord، the best Supporter.

المقدمة:

نهج القرآن الكريم منهجًا فريدًا في عرضه للقضايا، خالف به سائر المناهج السابقة واللاحقة، التي اصطلحت في مناهجها أن تُبنى على مقدمات ومباحث متسلسلة أو أبواب وفصول، إلى غير ذلك من التقسيمات في إطار مقاصد محدودة، فتراه يذكر طرفًا من الشيء ثم يتركه، ثم يعود إلى إتمامه، بطريقة لا تسأم النفوس هديه، ولا تستثقل حديثه، مراعيًا في تسلسل نصوصه أن يقارب بين أجزائها.

والعدول أسلوب من أساليب التعبير القرآني، فقد تعددت موضوعات النص القرآني في السورة الواحدة، وتنوعت ألفاظه. وإذا كان علماء العربية- قدامى ومحدثون- قد درسوا مصطلح العدول من خلال الأنواع الآتية:

- العدول على مستوى الحرف.
- العدول على مستوى الكلمة.
- العدول على مستوى الجملة.

فإن هذا البحث يحاول أن يضيف إلى مفهومه بطرحه على مستوى مغاير، ودراسته على نحو يتجاوز فيه الحرف والكلمة والجملة، وإن كانت كل تلك التحولات تعمل على الوصول إلى المستوى الذي تعرضه عليه هذه الدراسة، وتتأثر به وتؤثر فيه، ذلك المستوى الأوسع من كل تلك المستويات الذي يمكن وضعه بإزاء الثلاثة الأنواع السابقة تحت مسمى: (العدول على مستوى النص) أي العدول من موضوع ما إلى موضوع آخر أو من لفظ إلى آخر على مستوى نص موضوع معين.

فالمتتبع لنص سورة ما يلحظ أنه -سبحانه وتعالى- بينما يتحدث عن موضوع ما يعدل عنه إلى موضوع آخر، ولا يرجع إليه، وربما عدل عنه ثم عاد إليه، وهو ما يدعو إلى التدبر لإدراك ما وراء هذا العدول من مقاصد ودلالات، كما أنه يختار لفظ ما فيعدل عنه في موضع آخر ضمن سياق نص موضوع واحد، فهذه التحولات في النص القرآني تفاجئ المتلقي لخروجها عن المتوقع من اطِّراد على لفظ أو موضوع واحد. ومن ثم البحث في الروابط والعلاقات الكامنة بين الموضوعين، عن طريق المنهج التحليلي النصي، عبر المعيارين المتصلين بالترابط النصي (السبك والحبك)، حيث إنَّ الاتساق النصي من أهم أهداف تحليل الخطاب أو النص، كما أنَّ من أهم ملامح نحو النص دراسة الروابط مع التأكيد على المزج بين المستويات اللغوية المختلفة، وكل هذا يؤدي إلى الاتساق الذي يتضح في تلك النظرة الكلية للنص.

أمّا عن سبب اختيار سورة البقرة أنموذجًا للدراسة فلأنها تُعَدُّ أطول السور القرآنية، وهذا

يتيح تعدد التحولات الموضوعية واللفظية فيها.

أهمية البحث:

لا يخفى على دارسي اللغة الأهمية المناطة بدراسة النصوص اللغوية على هدي علم النص، إذ انصبت رؤى اللغويين على الجملة بوصفها أساس البنية ووحدة النص، وارتبط العدول بها، وهو مصطلح يكاد يكون غير ملتفت إليه في الدراسات النصية.

فعندما توجهت إلى المصادر اللغوية بحثًا عن مصطلح العدول وجدتها تحفل بمسميات عديدة، ولكن لم تعرف اللغة العربية – بحسب اطلاع الباحثة- مصطلح (العدول النصي)، مسمى هذه الدراسة، يغري بذلك أنَّ العدول قد استقر على قناعة وظيفية تضعه في مساحة محددة.

كما أنَّ تقطيع النص الكلي إلى نصوص جزئية بناء على موضوعاتها (نص معدول عنه)، (نص معدول إليه) عن طريق هذا المصطلح تُعين على الإحاطة بالدلالات الكلية للنص، والتحكم في أجزاء النص الكبرى عن طريق تقطيعه وتفصيله بطريقة تشريحية تجزيئية، وتسهم في تحقيق اتساق النص وانسجامه وتسهيل عملية القراءة وإزالة الغموض والالتباس عن النص.

منهج البحث:

ينقل المنهج النصي مصطلح العدول من حقل اشتغاله بالجملة في الدرس اللغوي إلى حقل اشتغاله بالنص في الدرس النصي، والكشف عن الروابط النصية المصاحبة لهذا النوع من العدول.

إذ يعني مصطلح العدول في هذا البحث: تغيير مسار السياقات البنائية للنص، أو العدول من هيئة بنائية مكتملة إلى هيئة بنائية أخرى، تعمل على جدل العلاقة بين نصوص عديدة. أو ما يحدث في النص من انتقالات أو تبدلات وتحولات في مستوى البنية عن طريق التداخل النصي والتكرار، والمزج الإيقاعي، والارتداد المشهدي. وهو أسلوب ارتقى بالنص جماليًا، إذ لم يَعُد يسير على وفق نمط واحد على مستوى الموضوعات، وإنما جعل التغيُّر والتبدُّل سمته ليظل المتلقي مشدودًا للنص، وهذا يبعث على حيوية دائمة في إطار التواصل بين النص والمتلقي. وهذا يُعد تأكيدًا على أنَّ مصطلح العدول قابل للتداول في الدرس النصي، وقادر على احتواء النصوص.

مشكلة البحث:

لعل المشكلة الأبرز هي تداخل مصطلح العدول النصي مع مصطلحات أُخَر، منها: الاستطراد، والاقتضاب، وحسن التخلص، ولكن بالبحث والتدقيق استطعت أن أفصل بين تلك المصطلحات ومصطلح العدول النصي - مسمى هذه الدراسة – عن طريق خصائص كل مصطلح منها.

الدراسات السابقة:

لم أقف فيها على بحث خاص بدراسة العدول في ضوء علم النص، وبالمنهج النصي – بحسب اطلاعي- ولكن هناك العديد من الدراسات حول العدول، تحت مسمى العدول أو غيره من المسميات التي تحمل المفهوم نفسه، أهمها:

1- **(الالتفات المعجمي في القرآن الكريم)، لحسن أحمد هود بن سميط، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، كلية الآداب. تناول فيه رصد التحولات المعجمية في القرآن الكريم.**

2- **(العدول الصرفي في القرآن الكريم – دراسة دلالية)، لهلال علي محمود الجحيشي، أطروحة تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه، بإشراف/محيي الدين توفيق إبراهيم، تخصص لغة عربية، جامعة الموصل كلية الآداب، 2005م.**

3- **(العدول الصرفي في القرآن الكريم)، بحث منشور للدكتورة/ ماجدة صلاح حسن، مجلة الجامعة، ع11، 2009م. تناولت فيه مفهوم العدول عند القدامى والمحدثين، ومفهوم العدول الصرفي، وكذا العدول في التعبير القرآني في صيغ الإفراد والجمع، والأفعال، والصيغ الصرفية.**

4- **(العدول في صيغ المشتقات في القرآن الكريم- دراسة دلالية)، لجلال عبد الله محمد سيف الحمادي، إشراف/ عباس السوسوة، جامعة تعز، 2007م.**

5- **(الإعجاز البياني في العدول النحوي السياقي في القرآن الكريم)، للدكتور عبد الله علي عبد الله الهتاري، رسالة دكتوراه مطبوعة، تناول فيها العديد من التحولات اللغوية في الصوت والصرف والمعجم والبلاغة والتركيب، على مستوى الجملة.**

وثمة دراسات وبحوث تؤدي المفهوم ذاته للعدول، منها الالتفات والانزياح، لا يتسع المجال لذكرها، فهي – أيضًا- تدور في مستوى الجملة.

وقد قسمت هذا البحث على مبحثين:

المبحث الأول: العدول النصي الداخلي

المبحث الثاني: العدول النصي الخارجي

المبحث الأول: العدول النصي الداخلي

للعدول في القرآن الكريم أمثلة كثيرة تناولت موضوعات مختلفة ومتنوعة وهذا التنوع والاختلاف يرجع إلى التنوع في طرائق الانتقال، فمنها ما هو قصص ومنها ما هو نعَمْ، ومنها ما هو جزاء ومنها ما هو حكم أو تشريع ومنها ما هو قاعدة إيمانية، وفي كل من هذه الموضوعات يظهر لنا العدول في نوعين رئيسين هما: (العدول الداخلي) و (العدول الخارجي).

فالعدول النصي الداخلي: هو حركة انتقال من جزء إلى جزء داخل الموضوع الواحد في سياق معين. يتجاوز فيه هذا الجزء اللفظة والجملة إلى النص.

وبمعنى آخر أنَّ جزءًا من هذا الموضوع نهاية لقصة أو غرض أو حوار ينتقل منه بـ (العدول) إلى جزء من الموضوع الآخر، ويكون الجزء المعدول إليه ضمن السياق، ويرتبط هذان الجزآن بعلاقة معينة اقتضاها السياق. وقد يعود إلى الموضوع المعدول عنه أو لا يعود.

إذ تُعد هذه التحولات وحدة بناء تجعل السورة بنية محكمة متناسبة المعاني والمباني والمطالع والمقاطع. كما أن لهذه التحولات إيقاعًا خاصًا في بنية السياق، فإنما تتغير لمناسبة موضوعية خاصة، وهذا طابع عام في سور القرآن جميعًا.

العدول في نص (أصناف الناس)

النص:

قال تعالى (الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8)) البقرة: 1- 8.

افتتح سبحانه وتعالى الحديث في النص السابق بذكر الذين أخلصوا دينهم لله، ووافق سرهم علنهم وقولهم، ثم عدل عنه إلى فئة الذين محضوا الكفر ظاهرًا ولم تؤمن قلوبهم، ووصف حال الذين كفروا في آيتين فقط، ثم عدل إلى فئة ثالثة وهم المنافقون في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم.

وعند البحث في الروابط التي تربط بين موضوعات هذا النص نجد الآتي:

أ- العطف:

فقد عَطف موضوع المنافقين على موضوع الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة. وقد استعمل الزمخشري مصطلح (القصة) ليدل به على نص داخل النص الكلي، يميزه عن النصوص المجاورة للموضوع، فيتم الربط بين نص ونص، من حيث هو ربط شكلي أو معنوي، تبعًا لعلاقة كل منهما بالآخر وقوة اتصالهما أو انفصالهما، ولذلك رأينا أن النص الأول (قصة المؤمنين) ارتبط بالنص الثاني (قصة الكافرين) بلا رابط شكلي؛ لتباين النصين في الغرض، فتم الفصل لكمال الانقطاع -بعبارة المتقدمين- أما النص الثالث (قصة المنافقين) فقد ارتبط بنص الكافرين بـ(الواو)؛ لأنَّ بينهم اشتراكًا واختلافًا، فهم يتفقون مع الكافرين في أن قلوبهم لم تؤمن واختلفوا معهم في إظهار الكفر، فالحال بينهم شبه كمال الاتصال وهي الحال المسوغة لمجيء العطف.

نلحظ في النص السابق قياسه ربط النص بالنص على ربط الجملة بالجملة، ولا فرق في آلية الربط بين ارتباط نصين من مستوى فوق الجملة وارتباط نصين من مستوى الجملة؛ إذ عُطف نص (مكون من توالي جمل) على نص من مستواه كما تعطف الجملة على الجملة. وهي أهم مسألة في نحو النص بمفهومه الحاضر.

يقول الشوكاني في إبراز الصلة بين الحديث عن الكافرين والحديث عن المنافقين «ذكر سبحانه في أول هذه السورة المؤمنين الخلص ثم ذكر بعدهم الكفرة الخلص ثم ذكر ثالثًا المنافقين وهم الذين لم يكونوا من إحدى الطائفتين بل صاروا فرقة ثالثة؛ لأنهم وافقوا في الظاهر الطائفة الأولى وفي الباطن الطائفة الثانية ومع ذلك فهم أهل الدرك الأسفل من النار»[1].

ومنه أيضًا قوله تعالى: (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) فإن قلت علامَ عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه؟ وجواب ذلك كما يرى الزمخشري: أن ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين[2]. فبإزاء عاقبة الكافرين تذكر عاقبة المؤمنين العاملين، حتى تكون الصورة مكتملة، فالاختلاف البين في أعمالهم وتصرفاتهم أدى إلى الاختلاف في عواقبهم ونتائج أعمالهم، فقال عن الكافرين والمنافقين (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) البقرة: 27، بينما قال عن المؤمنين (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، فنرى كيف تقابلت أوضاعهم أتم التقابل.

(1) فتح القدير 40/1.
(2) الكشاف 228/1.

وعن الآية نفسها يقول (الطاهر بن عاشور): «وجعل جملة (وَبَشِّرِ) معطوفة على مجموع الجمل المسبوقة لبيان وصف عقاب الكافرين، يعني جميع الذي فُصّل في قوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا) إلى قوله تعالى: (أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) فعطفت مجموع أخبار عن ثواب المؤمنين على مجموع أخبار عن عقاب الكافرين، وليس هو عطفًا لجملة معينة على جملة معينة الذي يطلب معه التناسب بين الجملتين في الخبرية والإنشائية... وجعل السيد الجرجاني لهذا النوع من العطف لقب عطف القصة على القصة»[3].

جاءت هذه الآيات بمثابة استفتاحية للموضوع الرئيس الذي تتمحور حوله السورة وهو موضوع (الاستخلاف). يقول الدكتور (دراز) في مقدمة السورة «وهنا تمت المقدمة بعد أن وصفت القرآن بما هو أهله، ووصفت متبعيه ومخالفيه كلاً بما يستحقه، ولا ريب أن وصف هذه الطوائف جميعها راجع في المآل إلى الثناء على القرآن، فإن الشيء الذي يكون متبعوه هم أهل الهدى والفلاح، ومخالفوه هم أهل الضلالة والخسر، لا يكون إلا حقاً واضحاً لا ريب فيه»[4].

ب- العموم والخصوص:

يتضح هذا في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة: 21. فبعد أن عدد سبحانه وتعالى في مقدمة السورة فِرَق المكلَّفين من المؤمنين والكفار والمنافقين – بصورة خاصة – وذكر صفاتهم وأحوالهم وما اختصت به كل فرقة، تحول الخطاب من الخصوص إلى العموم، داعيًا الناس عامة إلى عبادته وتوحيده مقيما عليهم الحجة بالآيات الكونية والشرعية مفتتحًا الآيات بقوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) وهي تشمل الفئات الثلاث السابقة.

العدول في نص (قصة بني إسرائيل)

لقد عَرض سبحانه وتعالى هذا العدول في الآيات (40- 123): (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ

(3) التحرير والتنوير 327/1.
(4) النبأ العظيم 173.

(43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48)) البقرة : 40 - 48.

إلى قوله تعالى: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123)) البقرة : 122 - 123.

هذه السلسلة من الآيات تمثل نصًا قصصيًا مكونًا من جزئيات صغرى مترابطة فيما بينها لتشكل نصًا كليًا موحدًا، كما أن هذه الجزئيات تشكل تحولات موضوعية قد تبدو للوهلة الأولى مفككة لا علاقة أو ترابط فيما بينها. أما حدود هذا النص (البداية والنهاية) فيمكن رسمها في أمرين من داخل النص:

1 - اتحاد الدلالة الكلية في النص وارتكازها حول محور رئيس وهو دعوة بني إسرائيل للإيمان برسالة النبي محمد(ص) التي يعرفون صدقها.

2 - الحدود التي يؤسسها النص الكلي الذي يتوزع في وحدات متصلة بينها روابط تمثل علامات للوقوف والحركة، وذلك في قوله تعالى (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) التي تكررت بين موضوعات النص، وبذلك تكون جملة (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) علامة بداية النص ونهايته.

العلاقات والروابط:

أولاً: علاقة النص بما قبله:

كانت الآيات من أول السورة إلى الآية (39) تتحدث عن إثبات وجود الله ووحدانيته، والأمر بعبادته، وأن القرآن كلام الله المعجز، وبيان مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان وتكريمه، وخلق السماوات والأرض، وموقف الناس من كل ذلك، وانقسامهم إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين.

ثم بدأ سبحانه وتعالى بمخاطبة الشعوب التي ظهرت فيها النبوة، فبدأ باليهود؛ لأنهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين، وأشدهم معارضة لدعوة النبي (ص) مع أنهم أولى الناس بالإيمان بخاتم المرسلين.. لذا ذكَّرهم الله تعالى بالعهد المؤكد معهم على التصديق بنبوته (ص).

ثانيًا: أدوات الربط الشكلية:

أ- الربط بالضمائر:

جاء ضمير الخطاب في مطلع القصة رابطًا قصة موسى (عليه السلام) بالخطاب الواعظ، إذ تم نداء بني إسرائيل قبل القصة بآيتين بقوله تعالى (**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**) ثم افتتح القصة بعدها بقوله تعالى (**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ**) البقرة: 49، وربط ضمير المتكلمين – المشير إليه سبحانه – القصة داخليًا بعد ذلك بقوله تعالى (**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ(51)**) البقرة: 51، واستمرت الضمائر بين التكلم والخطاب تنسج شبكة ربط بين مفاصل بنية القصة.

ثم انتهت الفقرة بعدول خاص إلى ضمير الغيبة في الآية نفسها التي جاء فيها نفس المكنى عنه (بنو إسرائيل) بضمير الخطاب (**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ**) البقرة: 61، حيث جاء ضمير الغيبة في (وضربت عليهم) وما بعدها لتربط نص القصة بزمن القص لا بزمن الحدث، إذ توجه الخطاب بعموميته، إلى النبي (ص) وإلى كل من يصلح أن يوجه إليه أن هؤلاء المحكي عنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة.

ثم يعود الخطاب من جديد في بداية الفقرة الثانية، ولكنه في هذه الفقرة يشهد حضورا لضمير الغيبة المشير إليه سبحانه في حوارهم مع موسى (عليه السلام) بشأن البقرة.

ويستمر الخطاب في حق بني إسرائيل إلى آخر آيات الفقرة الثانية، ثم التحول إلى الغيبة في خطاب النبي (ص) والمؤمنين بشأن قسوة قلوب بني إسرائيل. وبعد عشر آيات عاد الخطاب من جديد إلى بني إسرائيل، وسيطر الخطاب والحوار مع بني إسرائيل على الآيات إلى الآية السابعة والثمانين، ثم بدأ ضمير الغيبة في الظهور مشيرًا إليهم، إلى أن عاد ضمير الخطاب من جديد في الآية الثانية والتسعين، حيث تمت الإشارة إلى قصة العجل ورفع الطور.

إذن فقد ربطت (الواو) وغيرها ربطًا داخليًا بين موضوعات نص القصة (بني إسرائيل)، كما مثّلت وحدة ربط مشتركة بين الأجزاء المتكررة من النص.

ب- التكرار:

يتضح في قوله تعالى: (**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**) البقرة: 40.

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) البقرة: 47.

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) البقرة: 122.

في مستهل قصة بني إسرائيل قال تعالى (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) ثم أكّد على المعنى ذاته وبالصيغة نفسها في الآية (47)، ليبرز الموضوع الرئيس لهذه السورة، وهو أن يذكرهم بالنعم التي أنعمها عليهم. أما تكرار النداء في الآية (122) جاء في سياق تحذير المؤمنين من التشبه بأهل الكتاب، وكأنها بهذا التكرار تخاطب الخَلَف منهم كما خاطبت السلف، فتذكرهم بالنعم التي أنعم الله بها على أسلافهم من قبل.

كما أسهم تكرار حرف العطف (الواو)[5] في الربط بين الموضوعات الداخلية للقصة في أكثر من موضع.

٥- الحذف:

يظهر ذلك في نصوص الآيات الآتية:

الآية (47): (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)
اذكروا

الدليل على المحذوف: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) الآية نفسها

الآية (49): (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ)
اذكروا

الدليل على المحذوف: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) الآية: 40

الآية (50): (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ)
اذكروا

الدليل على المحذوف: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) الآية: 40.

الآية (51): (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)
اذكروا

الدليل على المحذوف: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) الآية: 40

الآية (53): (وَإِذْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)
اذكروا

(5) وتسمى (الواو المقطعية)، إذ يغلب ورودها في النصوص القصصية للربط بين مقاطع القصة الواحدة.

الدليل على المحذوف: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) الآية :40

الآية (54) : (وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِه)

اذكروا

الدليل على المحذوف : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) الآية :40

الآية (55): (وَ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّه جَهْرَةً)

اذكروا

الدليل على المحذوف : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) الآية :40

الآية(58): (وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا)

اذكروا

الدليل على المحذوف : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) الآية :40

الآية (60): (وَ إِذ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِه)

اذكروا

الآية (61) : (وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ)

اذكروا

الدليل على المحذوف : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) الآية :40

الآية (63): (وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ)

اذكروا

الدليل على المحذوف: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) الآية : 40

الآية (67) : (وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِه إِنَّ اللَّه يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً)

اذكروا

وغيرها من المحذوفات إلى آخر القصة.

اتضح في النصوص السابقة أثر الحذف في تحقيق الترابط بين موضوعات القصة المعدول عنها والمعدول إليها (40 – 103)، عن طريق تقدير المحذوف ومن ثمَّ تكراره.

حيث بدأ في الآية الأربعين بتذكير بني إسرائيل بنعم الله تعالى عليهم (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) ثمّ استعمل النّصّ القرآني (إذ)- وهي مفعول به لفعل محذوف تقديره (اذكروا) العائد على(اذكروا) الآية (40) - في تذكير بني إسرائيل بتلك النعم طوال القصة.

ثالثًا: العلاقات المعنويــة:

علاقة الإجمال والتفصيل

لنا أن نتساءل: لماذا فصَّل أمر البقرة ووصفها، وأجملَ معجزة إحياء الميت وإنطاقه باسم القاتل؟

إن الغرض هنا –والله أعلم– هو بيان مدى الجدل والعناد الذي قابل بنو إسرائيل نبيهم وأمر ربهم. إن الجدل طبع متأصل فيهم، ولهذا يفصل القرآن كثيرًا من جدلهم مع موسى (عليه السلام) وغيره. بدليل النصوص السابقة للنص المعدول إليه، وهي:

- **(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ(61)).**
- **(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55)).**
- **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(246)).**

فهذا الجدل المتأصل في بني إسرائيل هو الذي تعني القصة بإبرازه.

العدول في نص (إنزال الكتاب)

يتضح هذا العدول في النصوص القرآنية الآتية:

قال تعالى: (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) البقرة: 53.

هذه جملة مستأنفة ضمن سلسلة السرد الحكائي لقصة بني إسرائيل، يتحدث فيها سبحانه وتعالى عن إنزال الكتاب على سيدنا موسى (عليه السلام)، مستفتحًا الآية بحرف العطف (الواو) والظرف (إذ)، وهو عدول انتقالي داخل السياق العام للآيات - الحديث عن قصة بني إسرائيل- تأتي بعدها عدولات أُخر ضمن السياق العام للنص، لها صلة وثيقة بما قبلها وما بعدها، مستخدمًا الافتتاحية نفسها (وإذ). ثم يعود للموضوع المعدول عنه وهو الحديث عن إنزال الكتاب على سيدنا موسى(عليه السلام)، في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ

(88)) البقرة: 87 – 88، ولكنه هنا استخدم افتتاحية أخرى (ولقد)[6]، وهي تأكيد لما جاء في آية الإنزال السابقة، وتأكيده فيه توبيخ على عدم إتِّباع الرسول.

ولم تقف العدولات الموضوعية هنا، بل انتقل سبحانه وتعالى إلى الحديث عن إنزال البينات على سيدنا عيسى (عليه السلام)[7] دون أن يستخدم لام التوكيد وحرف التحقيق (ولقد) لقرب العهد في تتابع موضوعات النص، واكتفى بذكر حرف العطف (الواو) للربط بين الموضوعين في قوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ).

ثم عدل إلى الحديث عن القرآن الكريم، بقوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) البقرة: 89، فالكتاب: القرآن، و(مصدق لما معهم): التوراة[8].

ثم يعود مرة ثالثة وأخيرة للحديث عن كتاب موسى (عليه السلام)، بقوله تعالى: (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) البقرة: 92، مستفتحًا النص بـ(ولقد) ولكنه هنا لا يؤكد إنزال الكتاب على سيدنا موسى (عليه السلام)، وإنما يؤكد مجيء آياته إلى بني إسرائيل وعرضها عليهم، بعد مراحل عديدة مرَّ بها هذا النزول.

من نصوص الآيات السابقة يتضح لنا أنَّ السياق العام لبنية النص الكبرى (قصة بني إسرائيل) تكوَّنت من بُنى صغرى جاءت في كل مرة بأسلوب عدولي معجز، يجعل المتلقي يدرك أنَّ لكل تحول أو عدول دلالة معينة تجعله مشدود الانتباه لكل جزئية من جزئيات هذا العدول.

العلاقات والروابط:

أولاً: الروابط الشكلية:

أ- <u>التكرار</u>: لاشك أن التكرار الكامل أو الجزئي يساعد في تعيين محور النص الذي تدور الآيات حوله، وانتشاره على امتداد النص، مشكلاً مناطق ربط تسهم في تماسك النص، وفي النص الذي بين أيدينا بعدولاته الموضوعية المتنوعة نلحظ أنواعًا من التكرار:

- التكرار الجزئي: الذي حصل عن طريق تكرار الفعل (ءاتينا)، جاء تكرار هذا الفعل ليحدد القضية الأساس في العدولات الموضوعية للنص السابق، وهي قضية (إنزال الكتاب)، والتركيز على الإيتاء الرابط بين ثلاثة أطراف: فاعل الإيتاء وهو الله

(6) اللام في (لقد) يحتمل أن يكون توكيدًا، ويحتمل أن يكون جواب قسم، تفسير الثعالبي، 1/ 276.
(7) البينات: أي الحجج الواضحة الدالة على نبوته، وقيل الإنجيل. روح المعاني، 316/1.
(8) انظر: تفسير الثعالبي 278/1.

سبحانه وتعالى، ومفعولاه الأول (موسى عليه السلامومن إليه)، والثاني (الكتاب والآيات والبينات).

- التكرار بالترادف: جاء في النص المعدول عنه (1) لفظ الكتاب والفرقان، وفي النص المعدول إليه لفظ (البينات)، وفي النص المعدول عنه (2) لفظ (الكتاب)، وفي النص المعدول عنه (3) لفظ (البينات)، هذه الألفاظ بينها تكرار ترادفي فهي تؤدي المعنى نفسه، ولا يخفى ما في هذا الترادف من تلوين في أشكال الخطاب بما يضفي المزيد من المعاني الإضافية ويذهب الملل عن المتلقي. إلى جانب التكرار الاستبدالي بين الفعل (آتينا) والفعل (جاء) والقصدية المتحققة من كل منهما خصوصًا الأخير.

ب- <u>التبعية:</u>

العطف: جاء حرف العطف (الواو) للربط بين العدولات الموضوعية في النص السابق، ومن ثم يسهم في تماسكها، ومما يقوي هذا التماسك أن العطف لا يكون مقبولاً إلاَّ إذا كان هناك جامع بين المعطوف والمعطوف عليه، خاصة إذا كان هذا العطف بالواو.

نجد أيضًا أن العلاقة بين تلك العدولات تتضح عن طريق عطف جملة (ولمَّا جاءهم) على جملة (وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ) أي كذبوا لمّا جاءهم[9]، فالجمل المتعاطفة تتصل فيما بينها اتصالاً وثيقًا، حيث إنه لا بدَّ من وجود علاقة بينهما، ومن ثم يتماسك النص برمته، وما كان هذا التماسك وذلك السبك القوي ليتحقق لولا وجود أدوات العطف التي تربط بين أجزائه[10].

ومنه أيضًا عطف القصة (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ) على القصة (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ) وذكر هذه القصة بعد قصة موسى وعيسى (عليه السلام)؛ لأن الديانتين الكبيرتين اللتين سبقتا الإسلام هما اليهودية والنصرانية، ولكن علينا أن نعرف أنَّ قبلهما وما بينهما ديانات كثيرة، ندرك ذلك ضمنًا بالرجوع إلى قوله تعالى: (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) النساء: 164.

ثانيًا: العلاقات المعنوية:

تسهم العلاقات المعنوية هنا في ربط النص وتيسير فهمه، فبواسطة هذه العلاقات ندرك

(9) روح المعاني: 320/1.
(10) انظر: نسيج النص: 37.

بعضًا من أسرار ترتيب تلك الموضوعات، ومن هذه العلاقات:

أ- علاقة (الإجمال والتفصيل)

نلحظ هذه العلاقة في قوله تعالى: (وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ) فقد أجمل سبحانه وتعالى ذكر الرسل، ثم فصَّل فذكر عيسى (عليه السلام) في قوله (وَآتَيْنَا عِيسَى)؛ لأن مَنْ قبله من الرسل جاءوا بشريعة موسى (عليه السلام)، فكانوا متِّبعين له[11].

ب- علاقة (السببية):

ندرك علاقة المسبب بالسبب بين النص المعدول عنه والمعدول إليه في قوله تعالى: (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ)إذ إنها مسبب عن قوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا) في بداية النص المعدول عنه، بحيث لا يأتي الكلام السابق بدونه، وقد أُدخلت الهمزة بين السبب والمسبب للتوبيخ على تعقيبهم ذلك بهذا، و(الفاء) للعطف على مقدر كأنه قيل: أفعلمتم ما فعلتم، فجاء العطف للتفسير[12].

المبحث الثاني: العدول النصي الخارجي

هو الانتقال من موضوع إلى آخر لا يبدو أنه ذو صلة بالموضوع السابق، فيبدو هذا الانتقال مفاجئًا من حديث عن العقيدة إلى الحديث عن شعيرة من الشعائر، إلى حكم من أحكام المعاملات إلى توجيه اجتماعي أو اقتصادي...إلخ، وهذا النسق الخاص من العرض الذي ينتقل فيه السياق من موضوع إلى آخر يدفعنا إلى البحث عن تلك العلاقات والروابط التي تحكم هذا التنقل والتنوع، وذلك بالنظر إلى الوحدة الموضوعية بين طرفي العدول (المعدول عنه والمعدول إليه) وبيان الغرض الأساسي الذي يحكمهما.

العدول في نص (الخلق)

لعرض هذا الأمر نتناول النص المعدول عنه والنص المعدول إليه على النحو الآتي:

النص المعدول عنه: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) البقرة: 29.

(11) التفسير الكبير، 189/3.

(12) روح المعاني، 317/1.

النص المعدول إليه: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) البقرة : 30.

يأخذنا السياق القصصي إلى فضاء جرت فيه الأحداث، ويفصح عن حوار بينه سبحانه وتعالى وبين الملائكة، تبدأ الأحداث بإخبار الله ملائكته بجعله خليفة في الأرض، وتنتهي بإيجاد هذا الخليفة، مرورًا بمجموعة من الموضوعات المتعلقة بأمر الاستخلاف. فنجد الحديث عن منزلة آدم وتكريمه بأمر الله الملائكة السجود له، مع إلماحة سريعة إلى إباء إبليس دون التعرض لنتيجة هذا الإباء... ثم إسكان آدم وزوجه الجنة ونهيهما عن شجرة فيها، أزلهما الشيطان عنها، ثم توبة الله على آدم، ومن ثم هبوطه إلى الأرض خليفة كما أراد له الله سبحانه وتعالى.

وموضوع الاستخلاف عُدل إليه بعد موضوع خلق السماوات والأرض، وهما موضوعان ينفصل كل منهما عن الآخر، وهنا نحاول البحث عن علاقات تجمع بينهما، سواء كانت شكلية أو دلالية.

أ- الروابط الشكلية:

العطف:

يبدأ النص بقوله تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ) إذ عطفت الواو قصة خلق أبي البشر على قصة خلق السماوات والأرض انتقالاً بهم في الاستدلال على أن الله واحد وعلى بطلان شركهم، وانتقاله ذكر خلق السماوات والأرض إلى خلق الخليفة فيها (الإنسان)[13]، فالذي ينساق إليه أسلوب النظم فيه أن يكون العطف على جملة (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) أي خلق لكم ما في الأرض وكونه لأجلنا يهيئ السامع لترقب ذكر شأننا بعد ذكر شأن ما خلق لأجل الإنسان من سماء وارض[14]، كما اتفق زمن الصيغة الدال على الماضي مع الظرف (إذ) الدال على الماضي أيضا[15]، مما يعني أن الظرف أكد من الصيغة[16]؛ لأنه يخبر عن أحداث ماضية مجهولة الزمن، « وذلك أن (إذ) حرف يدل على مجهول من الوقت»[17]، ولا عبرة في تحديد الزمن في مثل هذه السياقات، ولكن ربما ندرك من انعدام الفاصل التركيبي بين الموضوعين، والربط فيما بينهما بـ

(13) انظر: التحرير والتنوير 1/ 295، والبحر المحيط 1/ 287.
(14) انظر: التحبير في علم التفسير، جلال الدين السيوطي 396/1، وإرشاد العقل السليم 1/ 109.
(15) انظر: معاني النحو 2/ 631، والجنى الداني في حروف المعاني 211.
(16) انظر: الدلالة الزمنية في الجملة العربية 132.
(17) جامع البيان 1/ 153 –154.

(الواو) أنه لم يكن هناك فاصل زمني كبير بين خلق السماوات والأرض وخلق من خُلقت له الأرض. كما أن ارتباط (إذ) الظرفية الموضوعة لزمان نسبة ماضية وإضافتها إلى الفعل الماضي (قال) فيه دلالة على حركة الفعل[18].

ب- العلاقات المعنوية:

الإجمال والتفصيل:

جاءت قصة آدم بعد قوله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ونص هذه الآية بدأ بتكريم الإنسان (خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) وخُتمت بالعلم (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، فجاءت القصة بعدها مبنية على هذين الركنين: تكريم آدم وتكريم العلم.

أما تكريم آدم فيظهر فيما يأتي:

1- ذكر استخلاف آدم في الأرض (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) فهذا تكريم، إذ المستخلف ذو منزلة ولاشك.

2- تفضيل آدم على الملائكة بتعليمه الأسماء كلها مما لا يعلمه الملائكة.

3- سجود الملائكة له.

وأما العلم في هذه القصة فقد تركز ذكره في ثلاثة مجالات:

1- إثبات العلم الشامل لله.

2- نفي العلم عن الملائكة إلا ما علمهم إياه رب العزة.

3- إثبات التعليم لآدم بما يصلح أن يقوم به أمر الخلافة ويستقيم.

ومن هذا يتبين أن القصة وقعت في سياقها أحسن موقع وأجمله، فكأنها جاءت تفصيلاً لما أُجملَ في الآية التي قبلها.

ومن ناحية أخرى يقول فاضل السامرائي: «إن ذكر استخلاف آدم في الأرض لم يرد إلا في هذا الموضع ولم يرد في أي موضع آخر من القرآن الكريم، وهو أنسب مكان له؛ إذ الاستخلاف الناجح لابد أن يتم له أمران:

الأول: أن يكون للخليفة حق التصرف والتدبر فيما استخلف فيه.

والثاني: أن تكون له القدرة على هذا التصرف، وأن يكون اختياره قائمًا على العلم

(18) انظر: الفعل زمانه وأبنيته 24.

بإمكانياته وقدراته على هذا الاستخلاف.

فلو لم يخلق له ما في الأرض جميعًا ما صح أن يكون خليفة الله في الأرض، أما من حيث إمكانياته وقدراته فقد تبين بالاختبار أنه أصلح المخلوقات لهذه المهمة، هذا علاوة على أن الذي اختاره عالم الغيب والشهادة»[19].

مما سبق يتضح أن موضوع الآية التي وقعت في مقدمة القصة أجمَلَ قصة آدم من ناحية، وأجمل ركني الاستخلاف المذكور فيها من ناحية أخرى.

العدول عن قصة آدم (عليه السلام) إلى قصة بني إسرائيل

نلحظ ذلك في النصين القرآنيين الآتيين:

النص المعدول عنه: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) البقرة: 34.

النص المعدول إليه: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) البقرة: 40.

جاء العدول هنا من قصة سيدنا آدم (عليه السلام) إلى قصة بني إسرائيل، وسنبحث في الروابط والعلاقات بين القصتين فيما يلي:

الاتساق المعجمي بين النصين:

إذ تتوافر مجموعة من العناصر المعجمية ترتبط بعناصر سابقة ضمن علاقات دلالية منظمة، يهتم فيها الخطاب بالمتلقي الذي يستطيع التعامل مع معطيات النص وفهم قصد المخاطِب.

ويُعدُّ هذا المثال من الأمثلة المهمة التي يبرز فيها دور الاتساق المعجمي في انسجام النص (المعدول عنه) بالنص (المعدول إليه) وتوجيه دلالته، ففي هذا المثال نوضح عملية الربط بين قصة إبليس وآدم والخلافة (نص سابق) وقصة بني إسرائيل وتكذيبهم لرسالة محمد (ص) (نص لاحق).

وبتتبع الخيوط التي تربط النصين نجد أن الآيات تعرض موضوعين متصلين بقوة مع بؤرة الفكرة الأساسية. إذ يعرض النص الأول موضوع استخلاف آدم في الأرض فاعتُرِضَ عليه. أما النص الثاني فيوضح دعوة بني إسرائيل للاستجابة لرسالة محمد (ص) معادلاً موضوعيًا للنص السابق. فثمة خليفة جديد ودعوة للإيمان به قوبلت من إبليس بالرفض والكفر (وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) ورأى أن سجوده كبيرة (واستكبر)، فهو يرى نفسه خيرًا من آدم وأفضل منه. كذلك بني

(19) التعبير القرآني 287.

إسرائيل لم يتقبلوا ذهاب الخلافة منهم إلى غيرهم، وهم يرون أنهم أفضل البشر، فكفروا بما أُنزل على محمد (ص) وهم يعلمون أنه الحق؛ لأنهم استكبروا الأمر، فكان فعلهم مساويًا لفعل إبليس الذي كفر واستكبر أن يسجد لبشر.

إبليس	بنو إسرائيل
لم يطع أمر الله (لم يؤمن لاستخلاف آدم)	لم يؤمنوا بما أُنزل مصدقًا لما معهم /عصوا
استكبر أمر السجود لآدم واستكبر عليه	استكبروا الاستجابة لرسالة محمد (ص)
كان من الكافرين لعنه الله وغضب عليه	كفروا برسالة محمد (ص) (وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ). كانوا – من قبل – يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين. ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله

اتضح بالاتساق المعجمي بين عناصر النصين، والاشتراك في الأساس الذي بُني عليه النص الكلي، انسجام النصين (المعدول عنه) و(المعدول إليه)، ولاحظنا كيف يوظف نص لخدمة نص آخر، فهذا الانتقال لم يفصلهما عن بعضهما بعضًا. يضاف إلى ذلك دور مبدأ التشابه في انسجام النص الكلي: قصة إبليس مع آدم تشبه قصة بني إسرائيل مع محمد (ص).

العدول من قصة بني إسرائيل إلى قصة سيدنا إبراهيم (عليه السلام)

النص المعدول عنه: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) البقرة: 122.

النص المعدول إليه: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) البقرة: 124.

وصلنا في النص السابق إلى أنّ الآيات القرآنيّة حتى الآية (123) كان الحديث فيها متضمّناً سيرة بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم، ابتداءً من عهد موسى (عليه السلام) إلى عهد محمّد (ص)، وفي نص تالٍ للنص السابق، وهي الآيات(124– 140) يرجع السياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى (عليه السلام)، وهي قصة سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، إذًا فالحذف يؤدي وظيفة مهمة في ترابط المقاطع القرآنية، حيث تبدأ الآيات بقوله تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ) فحذف الفعل (اذكروا) الناصب لـ (إذ) العائد على الفعل في الآيتين (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) البقرة: (40،122)، فكأنّ هذا الحذف تنبيهٌ واضحٌ للقارئ لما بين هذه المقاطع من ترابط، حتّى لا يُظَن مع بداية قراءة هذا المقطع أنّه منفصلٌ عن سابقه، وأنّه لا علاقة

بين قصّة بني إسرائيل وقصّة سيدنا إبراهيم، ثمّ كررت (إذ) مرّات عديدة بعد بداية المقطع لتأكيد هذا الترابط، فإذا كانت اليهود تقول: لن يدخل الجنّة إلا من كان هوداً، وإذا كانت النصارى تقول: لن يدخل الجنّة إلا من كان نصارَى، (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى) البقرة : 111، فإنّ الآيات جاءت تذكّر بني إسرائيل بأنّ الجنّة لن تكون لمجرد أنّهم أبناء إبراهيم وحفدته، وإنّما من استقام على العقيدة فهو وريثها ووريث عهودها، ومن فسق عنها ورغب بنفسه عن ملّة إبراهيم، فقد فسق عن عهد الله .

والآيات التي جاءت تذكّر بني إسرائيل بالوحدانيّة والعقيدة عن طريق قصّة سيدنا إبراهيم مستخدمة (إذ) للربط بينها وبين ما سبق من المقاطع القرآنيّة هي:

1- (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) البقرة : 124.

2- (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) البقرة: 125.

3- (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) البقرة:126.

4- (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) البقرة: 127.

5- (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) البقرة: 131.

إذًا فقد اشتمل الجزء الأوّل من سورة البقرة الآيات (1– 141) على ثلاث قصص قرآنيّة، قصّة سيدنا آدم (30 – 39) وقصّة بني إسرائيل (40 – 123) وقصّة سيدنا إبراهيم (124– 140). ولاحظنا مدى الترابط فيما بينهما على الرغم من الانتقالات والتحولات الموضوعية الداخلية في تلك القصص.

العدول في نص (الأهلة)

ورد هذا العدول في نص آية واحدة، نوضح ذلك فيما يلي:

النص المعدول عنه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى) البقرة : 189.

النص المعدول إليه: (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) البقرة :189.

تضمن نص الآية السابقة موضوعين مختلفين، يبدو من ظاهر النص أن لا علاقة بينهما،

فنسأل: ما وجه الارتباط بين السؤال عن الأهلة التي هي مواقيت للناس والحج وبين إتيان البيوت من ظهورها، وما الحكمة في الجمع بين الأمرين؟ وما الذي استدعى تجاوز هذين الموضوعين في آية واحدة؟

يمكن القول: إن علاقات التناسب بينهما تأخذ وجوه عديدة، ندركها عند العودة إلى النصوص المفسرة للآية، والتي بدورها تسلط الضوء على وجه التناسب والارتباط، وهي على ثلاثة وجوه، الأول: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهلة ونقصانها معلوم أن كل ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة ومصلحة للعباد، فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم – وهي دخول البيوت من ظهورها – مما ليس من البر وأنتم تحسبونها برًا. والثاني: أن الله سبحانه ذكرها لهم من باب الاستطراد، لمَّا ذكر إنها مواقيت للحج، وكان من أفعالهم بالحج أنهم إذا أحرموا لم يدخل منهم أحد حائطًا ولا دارًا ولا فسطاطًا من بابه، فإن كان من أهل المدر نقب نقبًا في ظهر البيت، أو يتخذ سلمًا يصعد به، وإن كان من أهل الوبر فيدخل ويخرج من ظهر الخباء[20].

فجاء الرّد: ليس البر بتحرجكم من دخول الباب، ولكن البر من آمن واتقى ما حرَّم الله، وكان من حقهم السؤال عن هذا، وترك السؤال عن الأهلة. والثالث: أنها من قبيل التمثيل لما هم عليه من تعكيس السؤال، فمثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخل من ظهره، فقيل لهم: ليس البر ما أنتم عليه من الأسئلة، ولكن البر من اتقى ذلك، ثم قال: (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)، أي باشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تباشروا عليها ولا تعكسوا. فالمراد منكم التسليم بأن كل فعل من أفعال الله حكمة منه، وأنه تعالى: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) الأنبياء:23، إذ أن في سؤالهم اتهامًا[21].

في حين ذكر السيوطي أنه من باب الاستطراد[22].

العدول من نص (الصفا والمروة) إلى نص (كتمان الحق)

يتضح هذا في النصين القرآنيين الآتيين:

النص المعدول عنه: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) البقرة: 158.

النص المعدول إليه: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) البقرة: 159.

(20) انظر: أسباب النزول، للواحدي 290. و لباب النقول في أسباب النزول 30.
(21) انظر: الكشاف 1/ 261-262. والبرهان في علوم القرآن 1/ 52-53.
(22) انظر: معترك الأقران 1/51.

الروابط والعلاقات:

إنَّ هذا اللون يكون على سبيل الاستئناف التبكيتي، إذ لما تقدم أن بعض أهل الكتاب يكتمون ما يعلمون من الحق، وختم ما أتبع ذلك؛ أي (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ) بصفتي الشكر والعلم، بالشكر لمن نصح لله، واتبع شرعه، إذ هو وحده يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، حتى وإن دقت الأفعال، وبالغ القوم في كتمانها بعد ذلك، أي اتباع شرع الله كاملاً وشكر من يقوم بذلك، انعطف الكلام إلى تبكيت المنافقين، ولعنهم على كتمانهم ما يعلمون من الحق. وما يكون من خروج عن هذا الغرض إنما هو من قبيل استطراد الأسلوب الحكيم المبين؛ لأن هذا الكتاب هدى للناس كافة، كما أن السياق بعد التزام الطاعة والشكر على ذلك كان مرشدًا إلى القول: بأن من أحدث شرًّا فإن الله عليم قدير، لذلك وصل به سبحانه وتعالى استئنافًا قوله على وجه يعممهم وغيرهم (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ)[23]، فالاسم الموصول هنا «للجنس فهو كالمعرف بلام الاستغراق فيعمم ويكون من العام الوارد على سبب خاص»[24].

إذن فقد جاء نص هذه الآيات ضمن سلسلة من النصوص المتتابعة والمترابطة فيما بينها ترابطًا معنويًا يظهر عند تأمل الآيات، فقد ذكر قبل هذا النص ما قابل به اليهود دعوة النبي محمد (ص) وتشبيههم فيها بحال سلفهم من مقابلة دعوة أنبيائهم من قبل إلى قوله تعالى (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) البقرة: 75، إلى قوله تعالى (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) البقرة : 101، ثم أفضى ذلك إلى الحديث عن قلة وفاء المشركين بوصايا إبراهيم الذين يفتخرون أنهم من ذريته فقال تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) البقرة : 140، فنوَّه بإبراهيم والكعبة وإنكار اليهود استقبالها، إلى قوله تعالى (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) البقرة:146، ثم عقب ذلك بتكملة فضائل الكعبة وشعائرها، فلما تم تجميع ذلك عطف الكلام إلى تفصيل ما رماهم به إجمالاً في قوله (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ) فقال (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا).

(23) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي 2/ 272- 273.
(24) التحرير والتنوير 2/ 65.

الخاتمة

انطلق هذا البحث من معطيات علم اللغة النصي، وذلك بتطبيق معياري التماسك والانسجام على أسلوب العدول النصي عن طريق أهم النصوص التي بنى عليها اللغويون والنحويون قواعدهم وهو النص القرآني، وفي نهاية المطاف أشير إلى بعض النتائج التي توصلتُ إليها، فيما يتعلق بالربط في الأسلوب العدولي، ورصد ألوان التعبير المتميزة في القرآن الكريم، القائمة على التنويعات اللفظية والموضوعية ضمن سياقات خاصة، وهي على النحو الآتي:

- اهتم البحث بتفسير التحولات في السياق الواحد في الخطاب القرآني عن طريق مفهوم (العدول النصي)، ونقصد به: دراسة ما يقوم عليه النص من انتقالات في آفاقه الموضوعية وفي بنيته، وما تخضع له من قيم واشتراطات تعبيرية وبنائية. يقدّم هذا المصطلح فضاءً متسعًا لتفحّص النص في وجوده الدلالي والبنائي، وهو ما لا نجده في تداول مفهوم العدول في الجملة الواحدة.
- تنطلق النظرة إلى تماسك أطراف أسلوب العدول في النص القرآني من فرضية كون السورة القرآنية الواحدة نصًا واحدًا رغم تعدد موضوعاتها وتفاوت أوقات نزولها واختلاف مناسباتها. إذ ليس قصد البحث إثبات الثابت للقرآن، أي أنه نص متماسك ومنسجم، وإنما يبحث في آليات هذا الانسجام التي ساهمت في تفوقه على النصوص.
- أوضح البحث وظيفة السياق اللغوي، الذي أتاح لنا تفسير وتوصيف أنساق التعبير القرآني بقيمه الجمالية والفنية، وأبرز السمات اللغوية التي يستعملها الخطاب القرآني.
- أكَّد البحث دور العدول النصي في فهم النص القرآني عند المتلقي، الذي بدوره يلفت انتباه المتلقي إلى تسلسل وترابط موضوعات السورة بالرجوع إلى ما قبل وبعد نص الموضوع الواحد.
- لا يعمد الأسلوب القرآني إلى العدول عن أصل التركيب إلا لتحقيق دلالة معينة يقتضيها السياق؛ فقد أظهر البحث أن المغايرة في الأسلوب والألفاظ هو تنوع أسلوبي خاضع للسياق؛ لأن هذا التنوع هو إحدى الوسائل التي تساعد على الترابط النصي.

المراجـــع

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)، مطبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة، (د.ت).
- أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تح/ كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ - 1991م.
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ- 1993م.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، 1391هـ.
- التحبير في علم التفسير، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، د.ط، 1984م.
- التعبير القرآني، لفاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمَّان، ط4، 2006م.
- تفسير الثعالبي، للإمام عبد الرحمن أبي زيد الثعالبي، تح/ علي محمد معوَّض،دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط1، 1418هـ - 1997م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، ابن جرير الطبري، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط1، 1422هـ - 2001م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن القاسم المرادي، تح: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1983م.
- الدلالة الزمنية في الجملة العربية، علي جابر المنصوري، الدار العلمية الدولية، عمَّان، ط1، 2002م.
- روح المعاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، 1998م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني، تح: عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، المنصورة، ط2، 1997م.
- الفعل زمانه وأبنيته، إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1983م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، رتبه

وضبطه : محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م.

- لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، دار ابن القيم، القاهرة، ط1، 2005م.
- معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2007.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، تح: علي محمد البجاوي، مكتبة الدراسات القرآنية، دار الفكر العربي، بيروت، (د.ت).
- النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، لمحمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة، 1985م.
- نسيج النص، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1993م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، د.ت.